أثر الصفة الصوتية في التوجيه الدلاليّ عند المتصوفة

(أبن عربي إنموذجا)

المدرس الدكتور

علاء صالح عبيد العنيسي

كلية العلوم الاسلامية- جامعة وارث الأنبياء

Alaa.alasady83@gmail.com

الملخص

إذا تتبعنا نصوص ابن عربي التي ورد فيها ذكر صفات الأصوات بصورة عامة سنجدها على قسمين: أحدهما: تابع فيها مصطلحات اللغويين والنحويين وعلماء التجويد، كما جاءت عند سيبويه وغيره، فكان هؤلاء العلماء مرجعيته الفكرية في الصفات، لذلك ذكر منها الجهر والهمس والشدة والرخاوة والإطباق والصفير والانحراف والتكرير، ووظفها دلالياً في علاقتها مع الكون، والآخر: اجترح فيه جملة اصطلاحات هي لعلم التنجيم والطلاسم أقرب منها للغة فذكر للأصوات صفاتٍ أسماها الصفات الطبيعية؛ وأراد بها صفات الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة، فهذه المكونات الأربعة هي أصل العناصر الطبيعية الأربعة (الماء، والهواء، والتراب، والنار).

وسوف نعمد في هذا البحث إلى تسليط الضوء على القسمين، لننتهي إلى الآلية التي يمازج فيها المتصوف، والأنموذج هنا ابن عربي، بين معطيات الدرس اللغوي العربي وآثار الطريقة الصوفية في النظر إلى الوجود.

الكلمات المفتاحية: صفة، صوت، تَّصوف، ابن عربي.

The effect of the phonetic feature on the semantic guidance of the Sufis

(Ibn Arabi as a model)

Instructor Dr.

Alaa Saleh Obaid Al-Anisi

College of Islamic Sciences – Warith Al-Anbia'a University

Abstract

If we follow the texts of Ibn Arabi in which the phonetic features are mentioned in general, we will find them in two parts, one that he followed the terminology of linguists, grammarians, and intonation scholars, as it narrated by Sibawayh and others. These scholars were his intellectual reference in the features, so he mentioned jahr, Hams, Shadda, Rakhawa, Etbak, Safeer, Inheraf, and Takrir, and employed them semantically in their relationship with the universe. The second one, he proposed a number of conventions related to astrology and talismans, which are closer to language, so he mentioned to the sounds qualities, which he called natural qualities; He meant by them the characteristics of heat, cold, dampness, and dryness. These four components are the origin of the four natural elements (water, air, earth, and fire).

In this research, we will shed light on the two sections, to end up with the mechanism in which the Sufi, the model here, Ibn Arabi, combines the data of the Arabic linguistic lesson and the effects of the Sufi way of looking at existence.

Keywords: feature, sound, Sufi, Ibn Arabi.

المقدمة

بِسم الله الرَّحمن الرَّحيم، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين المبعوث رحمة للعالمين أبي القاسم محمد وعلى آل بيته الطيبين الطاهرين.

وبعد

شكّلت المعرفة بالصفة الصوتية ركنًا أساسيًّا يرتكن إليه كثير من المشتغلين في المستوى الدلالي من مستويات اللغة على وجه العموم والدلالة الصوتية على وجه الخصوص؛ حيث كانت الصفة الصوتية بما تتشكّل به من إجراء نطقي أو أثر جسدي أو شعور نفسي رافدًا انتهل منه المهتمون بالتأويل ممّن خاضوا في النص القرآني وغيره من النصوص الدينية والأدبية وغيرهما.

ولم يكن هذا الأهتمام بالصفة الصوتية بوصفها أداة لجسّ العبء الدلالي للنصوص وراسمة لعناصر صورتها التأويلية حكرًا على فئة معيّنة، بل إتسعت لتشمل أنماطًا متنوعة كان كثير منها يمثّل أصداءً لمذاهب عقدية ومعرفية.

ومن بين هؤلاء؛ المتصوفة الذين كان لهم أسلوبهم الخاص في النظر إلى الصفة الصوتية وتحديد ماهيتها المتأثر بمرجعيتهم العقدية وأسسها المعرفية التي إنعكس أثرها على تشكيل دلالات الألفاظ على نحو يتماهى وما تنزع له هذه الطائفة من الترميز والإشارة.

ولعل أبن عربي (ت ٦٣٨هـ) خير شاهد على هذا النظر الصوتي لدلالات الألفاظ إستنادًا إلى صفات أصواتها؛ فالاهتمام بالصفة الصوتية والإعتداد بها في بيان دلالة اللفظ له حيّز كبير في قراءته لألفاظ القران الكريم، مثلما سنعرض فيما يأتي من صفحات هذا البحث الذي سيكون في مبحثين: يعرض أحدهما للصفات الصوتية اللغوية، ويعرض الآخر للصفات الصوتية الطبيعية كما يسميها أبن عربي، يسبق هذين المبحثين مهاد وتتبعهما خاتمة.

تمهيد

دأب العلماء والباحثون قديماً وحديثاً على تخصيص أبحاث ضمن مؤلفاتهم للصفة الصوتية؛ كونها تشكل أهمية كبرى في البحث الصوتي، فهي المائز الرئيس للتفريق بين صوت وآخر، وإذا جمعنا معها المخرج فإنَّ الصوت يصبح ذا كيان مستقل له حقوقه وعليه واجباته داخل الكلمة، ومن ثمَّ داخل الكلام كله، وهكذا بدأ الدرس من الخليل إلى يومنا هذا.

ويوقفنا المعنى اللغوي للصفة الصوتية على مجموعة من المعاني منها: النعت، والحلية، والإمارة، قال الخليل الفراهيدي (١٧٥هـ): «الوصف: وصفك الشيء بحليته ونعته»(١)، ويبدو أنّ الخليل فرَّق بين الحلية والنعت، فجعل النعت «وصفك الشيء بما فيه»، وجعل الحلية «تحليتك وجه الرجل إذا وصفته»(٢).

ويرى أبن فارس (٣٩٥هـ) أنَّ «الصفة الإمارة اللازمة للشيء»(٣)، ويفرق الراغب الأصفهاني

(٤٢٥هـ تقريبا) بين الوصف والصفة، فالوصف «وصف الشيء بحليته ونعته والصفة: الحالة التي عليها من حليته»(٤). ومهما يكن من أمر تعدد المعاني اللغوية فيبدو أنَّ الحلية هي الوجه الأنسب لمفهوم الصفة الصوتية، فالحلية هي السمة المائزة لصوت من دون غيره، وبها تماز كلمة بمعنى دون أخرى تبعاً لحلية الأصوات المتشكلة منها، أما من الناحية الاصطلاحية فيبدو أنَّ الصفة الصوتية فقيرة الحدِّ؛ ذلك بأنَّها لم تُعرَّف عند اللغويين ولا النحويين بدءا بالخليل ووصولاً إلى علماء التجويد، إذ عُرِّفت بأنها «كيفية عارضة في الصوت عند حصوله في المخرج، وتتميز عن ذلك الأصوات الممتدة بعضها عن بعض»(٥)، أو هي «عوارض تعرض للأصوات الواقعة في الحروف من الجهر، والرخاوة، والهمس، والشدة، وأمثال ذلك؛ فالمخرج كالميزان يعرف به ماهيته وكميته، والصفة كالمحك أو الناقد يعرف بها ماهيته، وبهذا يتميز بعض الحروف المشتركة في المخرج من بعضها الآخر حال تأديتها ولولا ذلك لكان الكلام بمنزلة أصوات البهائم التي لها مخرج واحد، وصفة واحدة، فلا يفهم منها الكلام»(٦). ويظهر النص السابق فائدة الصفة الصوتية؛ كونها سمة مميزة بين الأصوات اللغوية نفسها، وكذلك بين صوت الإنسان وصوت الحيوان الذي لا يُفهم منه شيئا كونه يتّسم باتحاد المخارج والصفات لأصواته لذلك جاءت في قالب واحد لا غير، ويوضح مكي القيسي (٤٣٧هـ) فائدة الصفة كذلك بقوله: «وأعلم أنَّه لولا أختلاف الصفات في الحروف لم يفرق في السمع بين أحرف من مخرج واحد، ولولا أختلاف المخارج لم يفرق في السمع بين حرفين على صفة واحدة»(٧).

والصفة الصوتية عند المحدثين هي «كيفية عارضة مصاحبة لتكوين الحروف في المخرج، سواء كانت تبين كيفية مرور الهواء في نقطة المخرج أم توضح عملية نطقية ثانوية تشكل جزءًا مهمًّا من تكوين الصوت وتميزه عن غيره»(٨)، أو هي «الكيفية التي خرج بها الصوت»(٩).

وأما الصوفية فلم يتبعوا نهج من سبقهم، بل جاءت بعض مصطلحات الصفات الصوتية عرضا في مؤلفاتهم، ويبدو أنَّ الغاية منها ليست لدراسة الصفات لذاتها؛ بل لتوظيفها في غايات صوفية ودلالات روحية، لذلك لم نجد تعريفاً للصفة الصوتية فيما اطلعنا عليه عند بعضهم، ويظهر أنَّ أبن عربي هو أكثر من استثمر إمكانات الصوت وطاقته الإيحائية ولا سيما الصفة الصوتية، وقد تبين ذلك عبر التتبع لنصوصه، غير أنَّه من الصعب أن يظفر البحث بكلام مباشر ومنتظم للصفة الصوتية عنده، فلغته مشفرة ورمزية حيث يدس المصطلح ويغطيه ببعض الغموض.

وقد وظّف أبن عربي علم الصوت في توضيح وحدة الوجود، فالأصوات بمعانيها ومخارجها وصفاتها تمثل ظاهرة ترتبط بالوجود كله، ومن ذلك

صفات الأصوات، فهي جزء من ذلك الوجود التي ترتبط به بالأصوات، وقد تبع أبن عربي منهج الصوفية في عدم تخصيص بحث أو فصل مستقل للصفات الصوتية، كما هو الحال عند اللغويين والنحويين أو غيرهم؛ لأن البحث عند هؤلاء اللغويين كان لأجل اللغة ذاتها بخلاف أبن عربي الذي يعدُّ اللغة إحدى أنظمة الوجود، فهو يسعى إلى توظيف الإمكانات المرتبطة بالبعد الصوتي لحروف اللغة في نظامه التأويلي وذلك لتأكيد تصوُّره الوجودي والمعرفي على السواء(١٠)، وإذا تتبعنا نصوص أبن عربي التي ورد فيها ذكر لصفات الأصوات بصورة عامة سنجدها على قسمين: أحدهما: تابع فيها مصطلحات اللغويين والنحويين وعلماء التجويد، كما جاءت عند سيبويه وغيره، فكان هؤلاء العلماء مرجعيته الفكرية في الصفات، لذلك ذكر منها الجهر والهمس والشدة والرخاوة والإطباق والصفير والإنحراف والتكرير، ووظفها دلالياً في علاقتها مع الكون، والآخر: إجترح فيه جملة إصطلاحات هي لعلم التنجيم والطلاسم أقرب منها للغة فذكر للأصوات صفاتٍ أسماها الصفات الطبيعية؛ وأراد بها صفات الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة، فهذه المكونات الأربعة هي أصل العناصر الطبيعية الأربعة (الماء، والهواء، والتراب، والنار).

وسوف نعمد في هذا البحث إلى تسليط الضوء على القسمين، لننتهي إلى الآلية التي يمازج فيها المتصوف، والأنموذج هنا أبن عربي، بين معطيات الدرس اللغوي العربي وآثار الطريقة الصوفية في النظر إلى الوجود.

المبحث الأول:

الصفات الصوتية اللغوية

مرّ بنا أنَّ أبن عربي عرض صفات الأصوات اللغوية بطريقين؛ طريق نابع من التصوف ومعطياته، وطريق سار فيه على هدي السابقين من اللغويين والمجودين، وسنجمل القول في الطريق الثاني في هذا المبحث، لنعرّج في المبحث الثاني على الطريق الأول.

أولاً: الجهر والهمس:

ربط أبن عربي بين ظاهرتي الجهر والهمس من جهة وبين الظاهر والباطن في الوجود من جهة أخرى، فالهمس يقابل عالم الغيب عنده وعالم الباطن، والجهر يقابل عالم الظاهر، وقد وظَّف أبن عربي إمكانيات الجهر والهمس الدلالية في استنطاق الآيات القرآنية، فذكر أنَّ هناك صلة بين الهمس وعالم اللطف، وكذلك بين الجهر والمصادمة والشدّة(١١)، وتحدث أبن عربي عن ذلك بقوله: «فاعلم أنَّ العالم على بعض تقاسيمه على قسمين بالنظر إلى حقيقة ما معلومة عندنا، قسم يسمى عالم الغيب وهو كل ما غاب عن الحس ولم تجرِ العادة بأن يدرك الحس له، وهو من الحروف السين والصاد والكاف والخاء المعجمة والتاء باثنتين من فوق والفاء والشين والهاء والتاء بالثلاث والحاء، وهذه حروف الرحمة والألطاف والرأفة والحنان والسكينة والوقار والنزول والتواضع وفيهم نزلت هذه الآية: «وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض

هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما»(١٢)، ونزلت فيهم أيضاً الرقيقة المحمدية التي تمتد إليهم منه كونه أوتي جوامع الكلم، أتى إليهم بها رسولهم فقال تعالى: «والذين هم في صلاتهم خاشعون»(١٣)، كما ونزلت فيهم «وخشعت الأصوات للرحمن»(١٤)، وهذا القليل من الحروف هو أيضاً من الذي نقول فيه إنه من اللطف لما ذكرناه فهذا من جملة المعاني التي تطلق عليه منه عالم الغيب واللطف»(١٥)، والأصوات التي ذكرها أبن عربي هي نفسها أصوات الهمس التي ذكرها سيبويه وغيره من الذين بحثوا في صفات الأصوات(١٦) . ولعل من جملة ما يكشفه هذا النص الصادر عن أبن عربي، فضلًا عن معرفته وإطلاعه على الدرس الصوتي العربي، هو نزوعه إلى توظيف معطيات هذا الدرس دلالياً؛ فهو يربط بين هذه الأصوات المهموسة وبين ما يراه من دلالات الإنشراح للنفس وعمق الإيمان، وتعلق المخلوق بصفات خالقه ليرتقي بذلك المخلوق إلى مرحلة الصفاء البشري كما عند الحقيقة المحمدية التي كانت مظهراً حقيقياً لذلك فتجلى فيها الرحمة والألطاف والرأفة والحسنات والسكينة والوقار والتواضع، وقد حاول أبن عربي أن يماهي بين ماهية هذه الصفات الواسمة لهذه الأصوات الواردة في النصوص القرآنية المباركة وما يتأوله من بعد دلالي يهرع للغيب ويغوص في الباطن، ويتعالى عن المادة أو المحسوس.

وفي الجانب الآخر يجتهد أبن عربي في أن يكشف عن توافق بين بين عالم الجهر وعالم الظاهر؛ فهو يرى أن «القسم الآخر يسمى عالم الشهادة والقصر: وهو كل عالم من عالمي الحروف جرت العادة عندهم أن يدركوه بحواسهم وهو ما بقي من الحروف، وفيهم قوله تعالى: «**فاصدع بما تؤمر**»(١٧)، وقوله تعالى: «**وأغلظ عليهم**»(١٨)، وقوله تعالى: «**وأجلب عليهم بخيلك ورجلك**»(١٩)، فهذا عالم الملك والقهر والشدة والجهاد والمصادمة والمقارعة، ومن روحانية هذه الحروف يكون لصاحب الوحي الغت والغط وصلصلة الجرس ورشح الجبين، ولهم: «يا أيها المزمل»(٢٠)، و «يا أيها المدثر»(٢١)، كما أنه في حروف عالم الغيب «نزل به الروح الأمين على قلبك»(٢٢)، «ولا تحرك به لسانك لتعجل به»(٢٣)، «ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه»(٢٤)، «وقل ربِّ زدني علماً»(٢٥).

ونص أبن عربي هذا يضع بين أيدينا توظيفاً دلالياً لصفة الجهر، فهناك انسجام بين صوت الجهر الواضح بعلوه عن صوت الهمس، والناتج عن شدّة اهتزاز الوترين الصوتيين، وبين عالم الملك والقهر والشدة والجهاد والمصادمة والمضارعة، فنجد أبن عربي ربط بين الجهر وهذه المعاني، وقد يشبه إلى حدِّ ما ربط أبن جني (ت٣٩٢هـ) في الخصائص؛ إذ ربط بين قوة الصوت وشدته، وبين قوة الموقف والحدث، كما في القضم والخضم، وكذلك بين الهز والأز، فعقد بابين لهذه الدراسة سمى الأول (باب تصاقب

الألفاظ لتصاقب المعاني)، حيث رأى فيه أنَّ «هذا غور من العربية لا ينتصف منه ولا يكاد يحاط به. وأكثر كلام العرب عليه وأنّ وإنْ كان غُفْلاً مسهوًّا عنه»(٢٦)، وضرب مثالاً على ذلك وهو أن القرآن يستعمل الأحرف القوية لأقوى المعنيين، فكلمة (تؤزُّهم) تعطي معنى الهز لكنها أقوى؛ ولذلك أختار القرآن الكريم صوت الهمزة القوي بدلاً من الهاء الرخو محاكاةً لقوة المعنى في الأزّ، والباب الآخر هو (باب في إمساس الألفاظ أشباه المعاني)(٢٧)، إذ يرى فيه أنَّ «هذا ونحوه أمرٌ إذا أنت أتيته من بابه، وأصلحت فكرك لتناوله وتأمله أعطاك مقادته، وأركبك ذروته، وجلا عليك بهجاته ومحاسنه. وإنْ أنت تناكرته وقلت هذا أمر منتشر، ومذهب صعب موعِر؛ حرمت نفسك لذته، وسددت عليها باب الحظوة به»(٢٨)، فلعل أبن عربي سار على هذا الهدي توظيفاً لصفات الأصوات.

وفي مقام آخر سجل أبن عربي مقارنة أخرى بين الجهر والهمس من جهة وبين أصوات الطبيعة من جهة أخرى، إذ قال: «وظهر على هذا النفس أصوات الرعود فالحروف المجهورة، وهبوب النسيم وهي الحروف المهموسة»(٢٩)، فأبن عربي يربط هنا بين علو أصوات الرعود وأهتزاز الأجسام من هذا الصوت وبين علو أصوات الجهر ووضوح السمع فيها من جهة، وكذلك ربط بين الهمس وهبوب النسيم وما به من صوت هادئ وما يصاحبه من سكون الموجودات الحية، وبعدها عن الصخب والخوف، وكل هذا التوظيف الدلالي استحضره أبن عربي من القرآن الكريم من خلال الآيات التي ركز عليها، وهو بذلك لم يترك الأمر على بعده الظاهري مع الحروف المجهورة من دون ربطها بالبعد الروحي لها، والذي يمثل العالم الروحي المنزل على رسول الإنسانية ﷺ، في أثناء تلقي الوحي وما يصاحبه من الغت، والغط، وصلصلة الجرس، ورشح الجبين، وهذه الأمور كانت تصيب النبيَّ ﷺ في أثناء نزول الوحي، فحاول أبن عربي الربط بين كل ذلك في نصوصه التي وظف فيها هذه الدلالات كما سبق في بيانه لدلالة الأصوات المجهورة، ونلحظ أنَّ لغته مشفرة ولا يمكن وضع اليد عليها إلّا بفك هذا التشفير.

وقد وظف أبن عربي مصطلح سيبويه بخفية في نصه، وأدخله في أبعاده الوجودية ليعمل تلاقحاً بينه وبين تلك الأبعاد الوجودية التي لطالما ذكرها أبن عربي أينما حلّ متحدثاً عنها، وهو مصطلح (النفس)، وقد إستعمل سيبويه هذا المصطلح في تعريف الجهر والهمس، إذ قال: «...ومنع النفس أن يجري معه»(٣٠)، وإستعمله أبن عربي بقوله: «وظهر على هذا النفس أصوات الرعود...»(٣١)، وظهر في الآيات القرآنية التي وظَّفها أبن عربي في أن الهمس رمز وجودي لعالم الغيب الذي فيه الرحمة واللطف والخشوع... إلخ، وأما الجهر فيرمز إلى عالم الشهادة وعالم القهر والشدة والمصادمة، والآيات الموظفة تعكس علاقة التقابل بين هاتين الظاهرتين، والأساس الذي يستند

إليه أبن عربي من إستشهاده بأن الرسول قد أوتي جوامع الكلم هي القرآن الكريم الذي دلَّ على ذلك بوضوح، فكذلك كان الوحي يحمل الظاهرتين فقد يكون شديداً أو ليِّنا سهلاً، والرسول ﷺ كان رحمة للعالمين وكان شديدا ومحارباً على المشركين قد أمر بالإغلاظ عليهم، ولم تكن الشدة عنده ﷺ إلا معنى الرحمة التي تسربلت بمظاهر القسوة والشدة، كما أنَّ عالم الشهادة والقهر ليس إلّا ظاهرة لعالم الغيب(٣٢).

ثانيًا: الشدة والرخاوة والطباق

ربط أبن عربي بين أصوات الطبيعة وصفتي الشدة،والرخاوة، والطباق، ولعله أراد بذلك ربط حركة الأفلاك بحركة اللسان في أثناء حصول الإطباق مع بعض الحروف، وكذلك أراد الربط بين لفظ الإطباق والسبع السماوات الطباق، إذ قال: «وجرت الريح ما بين زعزع ورخاء وهي الحروف الشديدة والرخوة... وظهرت الطباق في الأفلاك كالحروف المطبقة في نفس الإنسان إذا قصده، وهو في الإلهيات إذ أردناه أن نقول كن، فالحروف المطبقة في النفس الإلهي وجود سبع سموات طباقاً، وكل موجود في العالم على جهة الإطباق»(٣٣)، ونلحظ أن أبن عربي يجعل الحرف هو الأصل للتشبيه الذي يحمل عليه المشبه، وهذا الجعل متأسس على أن الحروف هي الأصل للوجود رجوعاً لحرف الألف الذي يمثل الذات الالهية وقد أعطى دلالة للحروف الشديدة، وهي زعزعة الريح، والحروف الرخوة أعطاها دلالة الرخاء ناظراً إلى طبيعة الصفة ليجعلها عنصراً مائزاً وموجها دلالياً، يربط به بين الظواهر الطبيعية ومرجعياتها في الحروف، وكل هذا لا يخرج عن وحدة الوجود عنده، أما حركة الطباق فلكونها حركة متعلقة باللسان فهي حركة طبيعية ربطها بحركة كونية وهي حركة الأفلاك، وحاول أيضاً ربط حركة الطباق بشكلها الترتيبي في الفم بفكرة طباق السماوات، فكأنه يرى تنظيما تراتبياً متشابها بين طبقات حركة اللسان في الفم من مستقره إلى أعلى الحنك، وبين طبقات السماوات السبع، ولم يكتف بربط العلاقات الكونية فيما بينها من دون إرجاعها إلى موجدها الأول بقوله: «وهو في الإلهيات إذا أردناه أن نقول له كن»(٣٤).

المبحث الثاني:

الصفات الطبيعية

المقصود بالصفات الطبيعية كما سبقت الإشارة إليه في التمهيد هي عناصر الوجود الأربعة التي تشكلت منها عناصر الطبيعة، وعناصر الوجود الأربعة هي (الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة)، ومنها تشكلت عناصر الوجود (الماء والهواء والتراب والنار)، وقد حاول أبن عربي الربط بين عناصر الوجود الأم وبين أصوات اللغة في ضوء نظرية (وحدة الوجود)، إذ أعطى لكل صوت صفة أو أكثر من هذه العناصر الأربعة، وحاول توظيفها دلالياً وصولاً إلى المعاني الصوفية التي يسعى إليها، إذ قال أبن عربي: «وسأذكر في هذا الباب بعد هذا التتميم ما يكون من الحروف حاراً رطباً... فأعلم أن الحرارة

والرطوبة هي الحياة الطبيعية»[٣٥]، ثم شرح كيفية تكوين عناصر الطبيعة من عناصر الحياة السابقة، فقال: «فإمتزجت الحرارة واليبوسة فكان الناس، والحرارة والرطوبة فكان الهواء، والبرودة والرطوبة فكان الماء، والبرودة واليبوسة فكان التراب، فانظر في تكوين الهواء عن الحرارة والرطوبة وهو النفس الذي هو الحياة...فهذه الأربعة الأركان المولدة عن الأمهات الأُول...»[٣٦]، وأبن عربي هنا يجعل الوجود من العناصر الأربعة، والعناصر الأربعة وُجدت من الصفات الأولى الأربعة إذ امتزجت فولدت لنا هذه العناصر، ويحاول أبن عربي بنظريته الوجودية، أن يربط بالعناصر الأُوَّل وبين حروف اللغة ليعيد كل شيء إلى تلك الحروف، ومن ثمَّ فإنَّ مرجع تلك الحروف جميعها هو حرف الألف، وهذا يعني أن هيمنة حرف الألف على الصفات أيضاً، فهو يجمعها كلها ويتصف بها، قال أبن عربي: «وأما الألف ففيها الحرارة والرطوبة واليبوسة والبرودة، ترجع مع الحار حارة، ومع الرطب رطبة، ومع البرودة باردة، ومع اليابس يابسة، على حسب ما تجاوره من العوالم...»[٣٧]، وبناء على هذه الرؤية للصفات ذهب أبن عربي إلى تقسيم حروف المعجم إلى أقسام كثيرة تارة مفردة، وأخرى مركبة، وثالثة غربية، ورابعة شرقية، وفي كل هذه الأقسام تدخل الصفات الأربعة الطبيعية، وقد أشار إلى ذلك في كتابه المبادي والغايات في نصفه الآخر المسمى بالعقد المنظوم، ولعل الأختصار هنا يدفعنا إلى نقل أحد الأقسام التي تتصف بهذه الصفات والتي يمكن الإفادة منها في البحث وعلى النحو الآتي[٣٨]:

١. الحروف الحارة: (أ، ج، ذ، ن، غ، ش)
٢. الحروف الباردة: (ب، ح، ر، ك، ص، ض، هـ)
٣. الحروف اليابسة: (ت، خ، ز، ل، ض، ق، و)
٤. الحروف الرطبة: (ث، د، ط، م، ع، س، ي)

أولاً: الوظيفة الدلالية للصفات الطبيعية:

حاول أبن عربي توظيف الصفات الطبيعية الاربع من خلال إرتباطها بالأصوات في قضاء الحوائج، وتسهيل الأمور، وسرعة النفوذ إلى الأشياء، فقال: «الحروف الرطبة تعطي سهولة المطلوب، وضدها اليبوسة. والحرارة تعطي سرعة النفوذ في المطلوب من غير بطئ، وضده البرودة، فإذا أجمعت عدداً على المطلوب فانظر في أي الحروف هي أكثر، فإنَّ الحكم في الغالب لها، فأعلم ذلك»[٣٩]، ونص أبن عربي يشير إلى أن الإنسان إذا أراد المطلوب فعليه النظر في كثرة الحروف التي يستعملها في كلامه، فإنَّ الحكم فيها للغلبة في نوع الحروف من جهة الصفة الطبيعية، فالتكثيف من الحروف الرطبة مثلا يفيد تسهيل المطالب، والإكثار من الحروف الحارة ينفع في تسريع النفوذ إليها.

وفي سعي الإنسان إلى الأشخاص عليه النظر إلى خلق الذي قصده، فإن كان بخيلاً وظَّف له الحروف ذات الصفات الرطبة، وإذا أراد الإنسان قضاء الحوائج ببطيء لأنه يحتمل في بطئها فائدة مرجوة فعليه بالحروف الحارة واليابسة، قال أبن عربي: «إذا

قصدت أحداً في حاجة، فانظر في خلقه، فان كانت سهلة سمحة فاجعل في الوقف الحروف الرطبة ما استطعت، والحارة فإنها تكرم البخيل، وتزيد الكريم تكرماً ومبادرة إلى قضاء الحاجة، وإذا أردت الحاجة ببطيء بالأمر في ذلك البطء مصلحتك غير أنك تحب السرعة والسرور بالوعد فاستعمل الحروف الحارة واليابسة»(٤٠).

وذهب أبن عربي إلى أبعد من ذلك في توظيف الصفات الطبيعية للأصوات، إذ ربطها بحركة البروج الهوائية والنارية، وحركة الشمس، والقمر، فكل شيء في الوجود له علاقة ورابطة وآصرة تتضافر مع غيرها لتعطي عملا أو تنتج دلالة ممتزجة من أمرين ما كانت إحداهما قادرة على إنتاجها وحدها، وكل ذلك وظَّفه أبن عربي في خدمة سيد الممكنات (الإنسان)، إذ قال: «وإذا أردت أن تعرف ما يطرأ في حاجتك فانظر إلى الحروف التي قد حسنتها كما علمتك، فان كانت الحرارة غالبة فالأمر سريع القضاء، وإن كانت البرودة غالبة فبعيد أن يقضى فلتقيده أو ترسمه بالشمس، وإذا كان في البروج الهوائية والنارية وهو أوفق»(٤١)، فالعلاقات متشابكة بعضها بالبعض الآخر، ولا شيء ينفرد عن تلك الوحدة الكونية، وكأن أبن عربي ينظر من خلال نصه إلى (التأثر والتأثير) بين الصفات الطبيعية والحروف، وكأنها جسد الإنسان الواحد أينما حلَّ به شيء أثَّر على بقية الأعضاء، فالحرارة التي تتمدد بها الأشياء ولها القابلية على زيادة حركة الأشياء وتسريعها كل هذا ربطه أبن عربي بسرعة قضاء الحوائج مع صفة الحرارة، وبخلافه البرودة، فأبن عربي يعالج صفة البرودة بالتقييد أو الرسم بالشمس، وكأنَّ البرودة تحاول تقليص الأشياء المعنوية، كما لها سلطة كذلك على الطبيعة، لذلك يحاول أبن عربي معالجة هذه المسألة برسم قضاء الحوائج بُعَيْدَها بالشمس، وكأنَّه يريد القول: إنَّ الشمس سوف تقلل درجة البرودة وتحاول جعل الأشياء تتمدد ولا تتقلص، فالتمدد سهل، والتقلص يصَّعب الأشياء.

ثم يزيد أبن عربي في توظيف الصفات الطبيعية للأصوات توظيفاً دلالياً، إذ يقول: «وإذا كانت الرطوبة غالبة في الحروف والحرارة، فأنه ينقض بفرح وهنا وطيب نفس، وإذا كانت اليبوسة غالبة في الحروف والحرارة، فأنه ينقض بنكد، وإذا كانت البرودة أغلب من الحرارة فيبعد قضاء الحاجة فارسمه، وإذا كانت الحرارة مع اليبوسة إذا كان القمر في البروج الهوائية، والشمس في البروج المائية، وإذا كانت البرودة واليبوسة غالبة فرسمه إذا كان الشمس في البروج الهوائية والقمر، وإذا كان القمر في الناريات فلا بأس»(٤٢)، ويظهر من كلامه أنَّه لا يكتفي بوصف الظاهرة التي وظَّفها؛ بل يجعل للإنسان قابلية التدخل وتغيير النتائج ببعض الخطوات، لتكون الأمور لصالحه عند إدراكه للإستعمال الصفاتي وأوقاته، وكذلك عند إلتزامه بالكلام في بعض مواقع الأفلاك.

ثانياً: علاقة الصفات الصوتية بالصفات الطبيعية:

ذهب أبن عربي إلى ربط بعض الصفات الصوتية ببعض الصفات الطبيعية، وقد ظهر هذا في ربطه بين صفتي التفشي والصفير من جهة، وصفة الحرارة من جهة أخرى، فإذا اجتمعت هاتان الصفتان مع الحرارة زادت الحرارة، وكان لها أثر في الوظيفة الفعلية، قال أبن عربي: «...وكذلك حروف اللسان، والحنك بالإطباق والصفير وان الصفير والتفشي يعطي حرارة زائدة للحروف على غيره فيكون فعله في الحرارة أقوى»(٤٣)، فإذا ربطنا بين الوظائف السابقة لصفات الحروف الطبيعية وخاصة صفة الحرارة التي سبق ذكرها سواء في عدم تسهيل الأمور، أو سرعة النفوذ في المطلوب، أو بطئ الأمور، أو سرعة القضاء، فإنَّ هذه الصفات إذا إرتبطت بصفات التفشي والصفير تزيد الوظائف السابقة قدراً أعلى، لأنَّ الحرارة زادت بسبب صفتي الصفير والتفشي.

وعلى ما تقدم من الكلام في الصفات الطبيعية، ومدى توظيفها دلالياً في حال ارتباطها بأصوات اللغة، صار من الواجب علينا معرفة المرجعية الفكرية لأبن عربي في هذه الأفكار، فهل هي من بنات أفكاره؟ أم أنَّه إستقاها من غيره ولم يصرح بها، والظاهر أنَّه قد تأثر بأفكار الفلاسفة الذين سبقوه، وخاصة أبن سينا، ونجد ذلك بوضوح عند الرجوع إلى رسالة الحروف التي تبيَّن أن هذه المصطلحات حاضرة فيها، إذ عدَّها أبن سينا صفات للحروف، وكذلك ربطها بالأجرام السماوية، قال أبن سينا: «وأما الحروف الأخرى فإنَّها مشترك في تمتد زمانا... وربما كانت أصلب، وربما كانت أيبس،وربما كانت أرطب،وربما كانت الحبس في نفس رطوبة تتقفع...»(٤٤)، فيشير أبن سينا في نصه إلى وجود مصطلحي الرطوبة واليبوسة، وأنهما صفتان لبعض الحروف، وفي نص آخر قال: «وأما الغيث فهو زحزح من ذلك يسرا، وليس تجد من الرطوبة ولا من قوة إنحفاز الهواء ما تجده الخاء والحركة فيه إلى قرار الرطوبة... وهواؤها يحدث في الرطوبة الحنكية كالغليان والإهتزاز»(٤٥)، فكلام أبن سينا فيه ما يشير إلى أن أبن عربي قد أفاد منه كثيراً في موضوع الصفات الطبيعية، سواء صرَّح بذلك، أم لم يصرح به.

وإذا أردنا تلمس بعض مصاديق توظيف أبن عربي للصفات الصوتية والطبيعية فإنَّا نقف على بحث تناول فيه حضور صوت الألف وغيابه عن (أسم) البسملة في القرآن الكريم، حاول أن يستكشف أسرار وجود صوت الألف في (أسم) البسملة في بدايات السور في القرآن الكريم، وحضوره في البسملة في آيات من سور من القرآن الكريم، وهو في هذا العمل يعقد مقارنة ويحاول الإفادة من السياق اللفظي، وكذلك حاول أن يوظف الصفات الصوتية بطريق خفي في الوصول إلى المعاني الصوفية.

وقد سار أبن عربي على تفسير كل شيء في ضوء فلسفة وحدة الوجود، فهو يحاول ربط الأشياء بعضها ببعضها الآخر، وأن اللغة تمثل في فكره الوجود كله،

وأن الأصوات اللغوية تقابل الموجودات، ومرجعها كلها إلى صوت الألف الذي يقابل الذات الإلهية.

وأما من الناحية القرآنية فيظهر أن أبن عربي يستشعر إمكانات صوت الألف وكذلك الأصوات التي معه للوصول إلى المعاني الصوفية التي تكشف عن أسرار العلم الصوفي الكامن في ذهن أبن عربي، ومن ذلك ما جاء عنده في تفسيره لحضور صوت الألف في قوله تعالى: «اقرأ باسم ربك»[٤٦]. وقوله تعالى: «باسم الله مجراها»[٤٧]. وكذلك غيابه في البسملة من بدايات السور «بسم الله الرحمن الرحيم»، أما في أثر هذا الحضور والغياب فقال أبن عربي: «ثم وجدنا الألف من «بسم» قد ظهرت في «اقرأ باسم ربك» و«باسم الله مجراها» ظهرت الألف بين الباء والسين، ولم تظهر بين السين والميم فلو لم تظهر «الألف» في «اقرأ باسم ربك» ماعلم المِثْل حقيقته، ولا رأى سورته فتيقّظ من سنة الغفلة، وانتبه! فلما كثر استعمالها (أي الألف) في أوائل السور حُذفت لوجود المِثْل (أي الباء) مرآة للسين؛ فصار السين مثالا. وعلى هذا الترتيب نظام التركيب»[٤٨]، ونص أبن عربي يضعنا أمام التحليل بين الحضور والغياب وعلى النحو الآتي:

١. **حضور صوت الألف:**

يتضح من نص أبن عربي أن وجود صوت الألف في آية السفينة هو المسيّر للسفينة، فلولاه لما سارت السفينة (فلو لم تظهر الألف في (باسم) السفينة، ما جرت السفينة)، فالألف عنده هو الباعث للحركة ولـولاه لما جرت تلك السفينة ولا تأخذ طاقتها الحركية من أي صوت من أصوات (باسم) ماعدا الألـف؛ فلا تأخذ من (السين) في (باسم) فهي لا تأخذ طاقتها من نفسها، ولا من نظيراتها الأُخر، فكل هـذه الأصـوات لها مخارج وصفات تتقابل معها السين وتناظرها فيها، فلا بد والحال هذه له من الإتكاء على صوت له قابلية أكبر من ذلك، فله المحركية والدافعية التي تتحكم بالريح، وله سلطة على الصفات والمخارج كلها، والحال كما عرفنا سابقاً أنه متحصل بصوت الألف، فسطوة صوت الألف على الأصوات وتنزهه عن التحديد بصفة محددة ومخرج محدد يغني السين المهموسة الساكنة عن الحركة الأهتزازية الناتجة عن الوترين الصوتيين، فلا بد لها والحال هذه من الأهتزاز الذي تكسبه من الألف والذي يفعل تلك الحركة وذلك الجري الضعيف الذي وجد منه في الصوت المهموس، قال سيبويه في المهموس: «حرف أَضعف الإعتماد عليه في موضعه وجرى النفس»[٤٩].

ونرى أن أبن عربي حاول توظيف مصطلح الجري في الصوت المهموس، والذي مثله صوت السين، لينقله إلى جرى السفينة المستعمل في القرآن الكريم، وكذلك لا يتم هذا ما لم تتدخل الذات الإلهية (صوت الألف في البسملة) التي جاءت في السياق، وفي ضوء هذا التصور نستطيع تفسير استعمال أبن عربي مصطلح السفينة في كلامه بدلا من كلمة الفلك، فالآية الكريمة لم تستعمل (السفينة)، بل استعملت

(الفلك)، فأعاد أبن عربي الكلمة بما يرادفها ليستفيد من صوت السين توظيفا دلالياً صوفياً.

وشيء آخر في هذا الإستعمال المستبدل هو أن الصفة الصوتية لصوت السين (الصفيري) تنسجم مع الصفة الطبيعية (الحرارة، واليبوسة) للصوت نفسه، فاجتماع الصفير مع الحرارة واليبوسة يعمل على زيادة الحرارة واليبوسة(٥٠)، وهذه الزيادة ستزيد من الحركة (الجري للسفينة)، يُزاد على ذلك أن الحرارة واليبوسة يعطيان سرعة النفوذ في المطلوب(٥١).

وأما إعطاء العلم للمِثْل (الرسول) في (اقرأ باسم ربك)، إذ قال: «ولو لم تظهر الألف في (اقرأ باسم ربك) لما علم ألمِثْل حقيقته، ولا رأى سورته»(٥٢)، فكان صوت الألف هو المانح للعلم وتثبيته في قلب المِثْل (الرسول)، وإذا حاولنا الكشف عن سر هذا التصور الصوفي عند أبن عربي وأمعنا النظر في كلماته سنلاحظ أنه أتى بكلمات في السياق تشبه الحروف التي في كلمات الآيـة؛ إذ استبدل الضمير الغائب وجوبا في (اقـرأ) العائد على الرسـول، وكذلك استبدل كاف الخطاب العائد على الرسول في (ربك)، استبدلها بكلمة (المِثْل) في قوله (ماعلم المِثْل)، ويبدو أنه لم يستبدلها بكلمة الرسول، أو الإنسان، أو النبي؛ لأنه أراد خلق توافق صوتي مع كلمة (باسم)؛ لأنهما تضمنا صوت الميم في آخرهما، ليعقد شهوة الميم التي بالمِثْل ويعلقها بمن أحبته، فالميم في منظومة أبن عربي يمثل عالم الملك والشهادة، ومخرجه من مخرج الباء، وبسائطه بين الباء والألف والهمزة، وظهور سلطانه في الإنسان(٥٣)، فتحصل من هذا أن الميم متعلقة جداً بـ (باسم) وخاصة بصوت الألف المانح لها العلم والقدرة.

وقد يُزاد على ذلك أن مخرج صوت اللام الذي من الشفتين كان حاضراً في ذهن أبن عربي، لوجود كلمة القراءة في الآية الكريمة، وهذا له علاقة بحركة الشفتين التي لولاها لما تتم القراءة، وقد يزاد على ذلك أيضاً وجود الصفات الطبيعية لصوت اللام (البرودة واليبوسة)(٥٤)، التي وجدها في الحرف المشكل في الكلمة يدل على أن الأمر يتم بفرح وهناء وطيب نفس(٥٥)، وهذه الأمور تتفق مع حال الرسول عند التكليف بالرسالة، كل هذه الأمور لا تتم لولا وجود المانح (صوت الألف) في كلمة (باسم).

ويوظف أبن عربي صفة التكرار في الراء؛ ليأتي بكلمة أخرى تستجيب لما يريده من معنى داخل النص وذلك في تفسير الآية التي فيها (باسم)، وهي كلمة رأى من قوله (ولا رأى سورته)، فهنا توافق بين كلمة (أقـرأ)، وكلمة (رأى) حيث يشتركان بالهمزة المكررة والراء، ويفترقان بوجود الألف في (رأى) والقاف في (اقرأ)، فالرؤية هنا لا تمنحها قاف القراءة، بل القاف تمنح القراءة والتعلم، وتمنح الألف الرؤية التي مُنحت للحقيقة المحمدية، يُزاد على ذلك إرتباط الألـف في (رأى) مع الألـف في (باسم)؛ ليمنحان العلم والرؤية الحقيقة للرسول ﷺ، من هنا حاول أبن عربي توظيف صفة التكرار في الراء ليشير بها إلى تكرار طلب الوحي من النبي ﷺ بالقراءة.

٢. غياب صوت الألف من البسملة (بسم):

سوغ أبن عربي غياب صوت الألف من البسملة بكثرة الإستعمال، وقد يُقال كيف لألف الذات الغياب عن موجوداته، ومن أفاض عليهم بإخراجهم من العدم إلى الوجود، فمقام الألف من (باسم) مقام الذات من الممكنات كما عرفنا سابقا، وفي ضوء هذا التصور لابد من وجود ما يعوض مقام الألف؛ ليؤدي دور الوكالة عن الأصالة، فكان الوكيل هنا صوت (الباء) المعبرة عن المِثْل، قال أبن عربي: «فلما كثر إستعمالها (أ-الألف) في أوائل السور حُذِفت لوجود المثل (أي الباء) مرآة للسين، فصار السين مثالاً. وعلى هذا الترتيب، نظام التركيب»(٥٦).

ويظهر أن أبن عربي يحاول الموازنة بين خلافة الإنسان بصورة عامة، والرسول بصورة خاصة في التبليغ عن الله سبحانه وتعالى، إذ ذكر في كلامه أن (الباء) قام مقام (الألف) في الخطاب، ولعله أراد به أن الإنسان يقوم مقام الذات الإلهية بالتبليغ، فالذات يمثلها الألف، والإنسان أو الرسول يمثله صوت الباء «لوجود المثل الذي قام مقامه في الخطاب، وهو الباء»، وقد جعل الباء مرآة للسين، فصارت السين مثالاً، ومعنى هذا أنه وظف الإمكانات الصوتية في هذه الحروف للتناوب بالتبليغ، فمن الصفات الطبيعية جعل تمازجاً بين الباء والسين؛ فكل واحد منهما له أن يمتلك صفتي الحرارة واليبوسة، فهما متناظران في أصل الوجود وعنصرهما النار(٥٧)، بيد أن مراتبهما متفاوتة؛ لأن الباء هي خليفة الألف، وهي المبلغة للخطاب عنه، وهي تقابل في عالم الشهادة الرسول ﷺ، والمعنى الصوفي لصوت السين أيضا يشمل الخاصة وخاصة الخاصة، لكنه أقل مرتبة من (الباء).

ومن هنا يظهر أبن عربي أن رقي (السين) تابع لرقي (الباء)، فالباء مقدمة عليه، لذلك بعد حذف (الألف) من (بسم) تكون هي واسطة التبليغ (السين) عنه؛ لترتقي بها إلى مرحلة المِثال، ويصبح مرآة لها (الباء)، فبدون الباء لا ترى نفسها، ولا صورتها، ولا كينونتها، وعلى هذا الترتيب في المنزلة أنشأ علاقة الخالق بالمخلوق، فالخالق يمثله الألف، والرسول (المخلوق) يمثله الباء، فالباء من جهة يمثل الخالق، ومن جهة أخرى ينقل الخطاب إلى السين (المخلوق)، وبهذا التمثيل صار الباء مرآة للسين.

ولعل ذلك في المعنى الصوفي عند أبن عربي بأن صوت السين تمثل الأولياء الذين اكتسبوا معارفهم وسموَّهم من الرسول ﷺ، فالرسول مرآة الله أمامهم، لذلك وظَّف إمكانات الباء المجهورة، ووضوحها وقوتها على السين المهموسة؛ ليجعل لجهرها مكانة على همس السين، وتكون حركة الجهر ممثلة للتبليغ عن الخطاب بخلاف الهمس الذي يطابق السكون والتلقي.

ومن مصاديق توظيف الصفة الصوتية عند أبن عربي ما جاء عنده في قصة عشق اللام للألف في (لا) إذ صور أبن عربي علاقة العشق والوجد التي بينهما؛

فمن شدة وجد اللام وعشقها للألف لفت ساقها بساقه، وقد صوَّر لنا هذه العلاقة بقول منظوم:

تعانق الألف العلام اللام

مثل الحبيبين فالأعوام أحلام

والتفَّت الساق بالساق عظمت

فجاءني منهما في اللف أعلام

إنَّ الفؤاد إذا معناه عانقه

بدا له فيه إيجاد وإعدام

فأبن عربي يحاول إيجاد مقابلة بين اللام التي تمثل الجانب الإنساني والتي صورها بأنها مكونة من جزأين هما الألف والنون (ا +ن)، يمثل الجزء الأول منهما الجانب الإلهي ويمثل الجزء الثاني الجانب الإنساني، فإذا التقت اللام مع الألف الإلهية ذابت النون وانتفت.

ويبدو أنَّ أبن عربي اتَّخذ من هذا التصور بعدًا رمزيًا للعشق الصوفي وتعلقه بالخالق سبحانه وتعالى. وما يهمنا هنا هو توظيف أبن عربي للصفة الصوتية الكامنة في اللام التي يحاول ربطها بأبعاد باطنية صوفية، وتضفي بنا المقاربة إلى رصد مصطلحات جاءت عنده، ومنها مصطلح (الميل، والانعطاف) تتقارب بوجه ما مع مصطلح سيبويه لصفة الإنحراف في اللام، قال أبن عربي: «اعلم أنه لما أصطحب الألف واللام صحب كل واحد منهما ميل وهو الهوى والغرض، والميل لا يكون إلّا عن حركة عشقية، فحركة اللام حركة ذاتية وحركة اللام حركة عرضية»(٥٨)، ويقول أبن عربي في وصف تعلق اللام بالألف وتمكن العشق فيها الذي دفعها إلى لوي وإنعطاف ساقها بقائمة الألف خوفاً من الفوت «... تمكن العشق فيه إلّا تراه قد لوى ساقه بقائمة الألف وإنعطف عليه حذراً من الفوت»(٥٩).

فيبدو أن صفة الميل والعطف باللام في النص أعلاه مقاربة لمصطلح الإنحراف الذي ذكره سيبويه من قبل إذ قال: «إنحراف اللسان مع الصوت وليس يخرج الصوت من موضع اللام، ولكن من ناحيتي مستدق اللسان فويق ذلك»(٦٠). فالميل عند أبن عربي، هنا يقترب من مفهوم صفة الإنحراف لصوت اللام عند سيبويه،وكذلك وظف أبن عربي إنفراد اللام في صفة الشدة التي إنماز بها من دون الأصوات الشديدة الأخرى؛ لأنَّ الصوت يجري معه، هذا مع علمنا أن الصوت الشديد عند سيبويه «هو الذي يمنع الصوت أن يجري فيه»(٦١)، فسيبويه عندما عرَّف المنحرف بالصوت الشديد كان من المفروض بالصوت الشديد أن لا يجري معه الصوت، لكنه والحال هذه جرى معه، قال سيبويه: «المنحرف وهو صوت شديد جرى فيه الصوت لإنحراف اللسان مع الصوت، ولم يعترض على الصوت كإعتراض الحروف الشديدة وهو اللام»(٦٢). فهذه القراءة التي تحمل ثنائية التناقض بين عدم جري الصوت مع الشدة، وجريه مع الإنحراف تنسجم مع ما تحمله اللام في الفكر الصوفي عند أبن عربي؛ فتناقض اللام كونها تعمل ببعدين كما عرفنا: البعد الإنساني المادي، والبعد الإلهي الروحي النوراني، كل هذا فيما يبدو أنَّ

أبن عربي وظَّفه للكشف عن معانيه الصوفية من دون التصريح بمرجعية سيبويه الفكرية؛ وبهذا نرجح بأنَّ اللام أخذت حمولة دلالية صوفية من صفتها الصوتية المتمثلة بين الشدة والإنحراف؛ لتماثل تلك الدائرة المنحرفة في أسفل (لا)، إنحرافاً لا يكاد تترك معه صوت الألف؛ لشدة الوجد والعشق الذي ألمَّ بها.

وإذا ذهبنا صوب الصفات الطبيعية فإنَّا نلمح توظيفاً لصفة اليبوسة في صوت اللام، تلك الصفة الطبيعية التي أعطاها وظيفة قضاء الحاجة ببطء فيه مصلحة مع محبة السرعة والسرور بالوعد «وإذا أردت قضاء الحاجة ببطء الأمر في ذلك البطء مصلحتك غير إنك تحب السرعة والسرور بالوعد فإستعمل الحروف الحارة واليابسة»(٦٣)، فكلمة حب السرعة والسرور بالوعد والبطء الذي فيه المصلحة الذي يشير إلى التروي كله يتوافق مع كلمة العشق، ومع الميل أو الهوى، وبجعله الألف تميل مع الصفات كلها قد حقق ذلك التلاحم الشكلي، فاليبوسة الإنسانية تحتاج إلى رطوبة الذات الإلهية لتنقلها من اليبوسة المادية إلى رطوبة الحياة الروحية!.

ونجد توظيفا آخر لصفة صوت اللام في موضوع تحليل لفظ الجلالة (الله)، من خلال فك أصواته، إذ حاول أبن عربي تطويع أو توظيف مصطلح الشدة مرة أخرى من خلال صوت اللام أيضاً، رابطاً به بصوت الألف الذي يمثل البعد الإلهي، وقد وظف هذا المصطلح مرتين مقروناً بمصطلح الحنك الأعلى والأسفل؛ قاصداً بذلك توظيفه في الخروج من الدنو والتسافل الروحي إلى العلو والتسامي، قال أبن عربي: «وإشتد بها في الحنك إشتدادا»(٦٤)، ويظهر توظيف مصطلح الشدة أنه أعطى قوة التمسك الذي ساعد اللام على بلوغ العُلا نحو الألف؛ لترتفع اللام بالشدة إلى التخلي عن الجانب الدنيوي المظلم والإرتقاء نحو الألف الذي يمثل الجانب النوراني المشرق، فمع الصراع والتجاذب المتناقض نحو الأسفل والأعلى تحتاج والحال هذه إلى تلك الشدة لتجاوز مرحلة التناقض والثبات نحو الإتجاه النوراني تاركة خلفها الإتجاه الشهواني المستفل «وإشتد اللسان بها نحو الحنك إشتداداً، لتمكن علوها وإرتفاعها بمشاهدته»(٦٥).

الخاتمة

صفوة القول مما تقدم يظهر أنَّ أبن عربي وظف اللغة ليصل من خلالها إلى أبعاده الروحية الوجودية؛ لذلك لا نجد عنده مباحث خاصة بالصفة الصوتية، سوى توظيفه لها في أثناء نصوصه التي يهدف بها ربط عالم الإمكان والخلق بعالم الإيجاد والخالق، فاللغة عنده وسيلة لا غاية تدرس لذاتها.

وقد إعتمد أبن عربي مرجعيات فكرية في التنظير لقضية الصفات، وأنَّها على قسمين: أحدهما إعتماده على النحويين واللغويين والمجودين، وقد غلب إعتماده على سيبويه، فوظَّف أفكاره ومصطلحاته خدمة للفكر الصوفي، ولم يصرح بذلك، وقد بان لنا من هذه الدراسة أنَّ عدم التصريح كان منهجاً

سار عليه أبن عربي كثيراً في مؤلفاته. والقسم الثاني إعتماده على الفلاسفة وخاصة أبن سينا كما تقدم، وهذه المرجعيات هي السبب بإنقسام الصفات على قسمين (الصوتية، والطبيعية). وأما التطبيق فقد كان على وفق مرجعياته الصوفية، وقد حاول أبن عربي توظيف كل ذلك لخدمة المعاني الصوفية، فكانت الصفة سمة مائزة عنده، وبخاصة في فكرة وحدة الوجود.

وقد إتضح أن صفة الجهر عنده رمز وجودي لعالم الغيب والشهادة، وأنه قارب بينها وبين عالم القوة والمصادمة والمقارعة، سائراً في ذلك على وفق نظرية المحاكاة التي قال بها أبن جني، كما في مثالي الهز والأز، والخضم والقضم، بيد أن أبن عربي وظفها لأبعاده الوجودية الصوفية، وكذلك الحال مع صفة الهمس فهي رمز وجودي لعالم الغيب وعالم اللطف والإيمان والخشوع وعالم الحقيقة المحمدية.

وأما الصفات الطبيعية فحاول أن يقرن بها بين عالم الوجود وعالم الحروف، عالم الأفلاك وعالم الطبيعة، ووشائج التعالق الكوني كله، بل وكيفية تحرك الموجودات كلها في ضوء التقاطعات العلائقية الوجودية وما ينتج عنها من آثار على تغيير الواقع المادي والروحي، فارتباط هذه الصفات بأصوات في الكلام وتكثيفها بقصد في مواقف ومقامات معينة فإنَّه يغير تلك المواقف لصالح المتكلم إن كان يتقن التوظيف، وبخلاف ذلك فإن النتائج تسير بما لا يرغب بها.

ويرمز أبن عربي بكل حرف من حروف اللغة إلى شيء في الوجود، وخاصة فيما جاء عنه في قضية صوت الألف، إذ جعله رمزاً يشير به إلى الذات الإلهية المانحة فيض الوجود للموجودات كلها، فكذلك صوت الألف هو مانح الوجود للأصوات جميعاً مشيرا إلى أنَّ الحروف عوالم تحتاج إلى من يديرها فذلك هو صوت الألف.

الهوامش

(١) العين: ٤/ ٣٧٦، وينظر: لسان العرب، أبن منظور: ٣٥٦.

(٢) العين: ١/ ٣٥٤، وينظر: أثر الصفات الصوتية في تفسير الظواهر اللغوية (دراسة صوتية صرفية)، أطروحة دكتوراه، كاظم سالم علي الحسناوي: ٨.

(٣) معجم مقاييس اللغة: ٦/ ١١٥.

(٤) مفردات ألفاظ القرآن: ٨٣٧، وينظر أثر الصفات الصوتية في تفسير الظواهر اللغوية: ٨.

(٥) شرح المقدمة الجزرية، طاش كبري زاده: ١١.

(٦) المنح الفكرية في شرح المقدمة الجزرية، الملا علي القاري: ٩٦، وينظر: أثر الصفات الصوتية في تفسير الظواهر اللغوية:١٥.

(٧) الرعاية: ٢١٨، التحليل الفيزيائي لصفات الأصوات (أطروحة): ١٤.

(٨) الدراسات الصوتية عند علماء التجويد، د. غانم قدوري الحمد ١٠٩.

(٩) دروس في النظام الصوتي للغة العربية د. عبد الرحمن بن إبراهيم الفوزان: ١٦.

(١٠)ينظر: فلسفة التأويل دراسة في تأويل القرآن عند محي الدين أبن عربي، أبو زيد: ٣١٣؛ وينظر: المقاربة اللغوية في الخطاب الصوفي، عقيل عكموش: ٩٣.

(١١)ينظر: المصدر نفسه.

(١٢)سورة الفرقان: الآية: ٦٣.

(١٣)سورة المؤمنون: الآية: ٢.

(١٤)سورة طه: الآية: ١٠٨.

(١٥)الفتوحات المكية ١/ ٥٤-٥٥

(١٦)ينظر: الكتاب ٤/ ٤٣٤.

(١٧)سورة الحجر: الآية: ٩٤.

(١٨)سورة التوبة: الآية: ٧٣.

(١٩)سورة الإسراء: الآية: ٦٤.

(٢٠)سورة المزمل: الآية: ١.

(٢١)سورة المدثر: الآية: ١.

(٢٢)سورة الشعراء: الآية: ١٩٢.

(٢٣)سورة القيامة: الآية: ١٦.

(٢٤)سورة طه: الآية: ١١٤.

(٢٥)الفتوحات المكية ٧/ ٥٥.

(٢٦)الخصائص: ٢/ ٤٠٣.

(٢٧)ينظر: الخصائص: ٢/ ٤٠٧، وينظر: من أسرار اللغة، د. إبراهيم أنيس: ١٢٥.

(٢٨)الخصائص: ٢/ ٤١٤.

(٢٩)الفتوحات المكية ٤: ٣١١، وينظر: المقاربة اللغوية في الخطاب الصوفي ٩٤.

(٣٠)الكتاب ٤/ ٤٣٤.

(٣١)ينظر: الفتوحات المكية ٢/ ٣٩١.

(٣٢)ينظر: فلسفة التأويل ٣١٤-٣١٥.

(٣٣)ينظر: الفتوحات المكية ٢/ ٣٩١.

(٣٤)المصدر نفسه: ١/ ٢٢.

(٣٥)المصدر نفسه.

(٣٦) المصدر نفسه

(٣٧) المصدر نفسه: ١/ ١٩.

(٣٨)ينظر: المبادئ والغايات في معاني الحروف والآيات ١٧٣-١٧٤.

(٣٩)ينظر: المصدر نفسه: ١٨٧.

(٤٠)المبادئ والغايات في معاني الحروف والآيات ١٨٣.

(٤١)المصدر نفسه: ١٨٣-١٨٤.

(٤٢)المبادئ والغايات ١٨٤.

(٤٣)المصدر نفسه ١٨٧.

(٤٤)أسباب حدوث الحروف ٦٢.

(٤٥)المصدر نفسه ٧٤.

(٤٦)سورة العلق: الآية: ١.

(٤٧)سورة هود: الآية: ٤١

(٤٨)الفتوحات المكية: ٩/ ١٣٦.

(٤٩)الكتاب: ٤٣٤.

(٥٠)ينظر: الفتوحات المكية:٤٦.

(٥١)ينظر: المبادئ والغايات في معاني الحروف والآيات:٨٣.

(٥٢)الفتوحات المكية: ٩/ ١٣٦.

(٥٣)ينظر: المصدر نفسه:٤٨.

(٥٤)ينظر: المصدر نفسه.

(٥٥)ينظر المبادئ والغايات:١٨٣.

(٥٦)الفتوحات المكية: ٩/ ١٣٩.

(٥٧)المصدر نفسه.

(٥٨) المصدر نفسه.

(٥٩) المصدر نفسه.

(٦٠) الكتاب: ٤/ ٤٣٥.

(٦١) المصدر نفسه.

(٦٢) الكتاب: ٤/ ٤٣٥.

(٦٣) المبادئ والغايات في معاني الحروف والآيات: ١٨٣.

(٦٤) الفتوحات المكية: ١٠/ ١٥٦.

(٦٥) المصدر نفسه.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

١. أثر الصفات الصوتية في تفسير الظواهر اللغوية دراسة صوتيَّة صرفيّة، (أطروحة دكتوراه)، جامعة كربلاء، كلية التربية للعلوم الإنسانية، كاظم سالم علي الحسناوي، ١٤٢٠هـ-٢٠١٩م.

٢. أسباب حدوث الحروف، الشيخ الرئيس أبي علي الحسين بن عبد الله بن سينا (٤٢٨-هـ)، تح: محمد حسان الطيان ويحيى مير علم، تقديم الدكتور شاكر الصخام والأستاذ أحمد راتب النفاخ، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق.

٣. التحليل الفيزيائي لصفات أصوات العربية دراسة مخبرية، (أطروحة دكتوراه)، جامعة باتنة – ١-، كلية اللغة والأدب العربي والفنون، قسم اللغة والأدب العربي، خضر ديلمي: ٢٠١٧-٢٠١٨.

٤. الجذران دخل وخرج في القرآن الكريم (دراسة صوتية صرفية)، (رسالة ماجستير)، كلية الآداب جامعة الكوفة، عامر محسون هادي الفتلي: ٢٠١٦-٢٠١٧.

٥. الخصائص، أبن جني (ت٣٩٢)، تح: محمد علي النجار، عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط٢: ١٤٣١-٢٠١٠م.

٦. الدراسات الصوتية عند علماء التجويد، د. غانم قدوري الحمد، دار عمار للنشر والتوزيع، عمان / الأردن، ط٢، : ١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م.

٧. دروس في النظام الصوتي للغة العربية، د. عبد الرحمن الفوزان: ١٤٢٨ هـ.

٨. الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة بعلم مراتب الحروف ومخارجها وصفاتها وألقابها وتفسير معانيها وتعليلها وبيان الحركات التي تلزمها، أبو محمد مكي بن أبي طالب القيسي (ت٤٣٧هـ)، د. أحمد حسن فرحات، دار عمار - الأردن، ط٣، ١٤١٧هـ-١٩٩٦م.

٩. شرح المقدمة الجزرية، عصام الدين أحمد بن مصطفى بن خليل الشهير بطاش كبري زاده (ت٩٦٨هـ)، تح: محمد سيدي محمد الأمين، مكتبة الملك فهد الوطنية، (د. ط)، ١٤٢١م.

١٠. العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت١٧٥)، تح: د. مهدي المخزومي، د. إبراهيم السامرائي، مؤسسة دار الهجرة، إيران، ط٢: ١٤٠٩هـ-.

١١. الفتوحات المكية، محيي الدين بن عربي، تح: عثمان يحيى، تصدير ومراجعة: د. إبراهيم مدكور، المجلس الأعلى للثقافة، الهيئة المصرية العامة للكتاب: ١٤٠٥ هـ-١٩٨٥م.

١٢. فلسفة التأويل دراسة في تأويل القرآن عند محيي الدين بن عربي، د. نصر أبو زيد، دار الوحدة للطباعة والنشر، بيروت - لبنان، ط١: ١٩٨٣م.

١٣. كتاب سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قمبر (ت١٨٠هـ-)، تح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٤: ١٤٣٣هـ-٢٠١٢م.

١٤. لسان العرب، أبن منظور (ت٧١١هـ)، دار المعارف، كورنيش النّيل - القاهرة، تح: عبد الله علي الكبير، محمد أحمد حسب الله، هاشم محمد الشاذلي، (د. ط)، (د. ت).

١٥. المبادي والغايات في معاني الحروف والآيات، محي الدين بن عربي (ت٦٣٨هـ)، تح: سعيد عبد الله الفتاح، دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان، ٢٠٠٦م.

١٦. معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس، تح:د. عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ط٣، ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م.

١٧. مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني (ت في حدود ٤٢٥هـ)، تح: صفوان عدنان داوودي، دار القلم - دمشق - ط٤، ١٤٣٠ هـ-٢٠٠٩م.

١٨. من أسرار اللغة، د. إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، ط٦، ١٩٧٨م.

١٩. المقاربة اللغوية في الخطاب الصوفي، د. عقيل عكموش، مؤسسة الإنتشار العربي، بيروت - لبنان، ط١، ٢٠١٣م.

٢٠. المنح الفكرية في شرح المقدمة الجزرية، الملا على القاري (ت١١١٤هـ)، تح: أسامة عطايا، دار الغوثاني للدراسات القرآنية، دمشق - سورية، ط٢، ١٤٣٣-٢٠١٢م.